

الثناء عند أبي ذؤيب الهذلي ومالك بن الرب التميمي* الدكتور فيروز حريجي**

خلاصة:

ان المقالة تبحث عن قصيدتين في الرثاء للشاعرين الذين عاشا في عصر واحد تقريباً و هما ابو ذؤيب الهذلي و مالك بن الرب التميمي. درست و حللت كل قصيدة منهما تحليلاً نقدياً من حيث الموضوع و صور الاخيلة و الموضوعات البلاغية. المستنبط أن ابا ذؤيب الهذلي استهل شعره بحوار متداول بينه و بين حبيته أميمة حسب الاتجاه التقليدي في العصر الجاهلي و الاسلامي و أن رثاء أبي ذؤيب رثاء شخصي عاطفي صادق ينبعث عن صميم قلبه مستعملاً المنهج الشعري المتبع في العصر الجاهلي مقروناً ببعض الحكم و الامثال التي سجلت في كتب الامثال و الحكم و لا يميز قصيدة أبي ذؤيب بالابداع الموضوعي الذي نراه في شعر مالك اذ أن مالك بن الرب التميمي نظم في موضوع جديد في عصره. الأو هو رثاؤه نفسه عند احتضار الموت معبراً عن تلهفه و تحسره على انتزاحه عن موطنه و أرضه.

الكلمات الرئيسية: الرثاء، المنهج الشعري، صورالخيال، العصر الجاهلي

* الوصول: ٨٣/١٢/١٠ : تاريخ القبول: ٨٣/١٢/٢٠

** استاذ اللغة العربية بجامعة طهران و عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

مقدمة

قبل ان اتوغل في موضوع البحث يجدر لي أن أشير الى أن الرثاء ينظمه الشاعر على الوفاء فيقضي بشعره حقوقاً سألقة بينه وبين الميت او يعبر الشاعر برثائه عن مشاعره الحزينة التي احس بها عندما اصابت المنية من يكون عزيزاً و محبوباً لديه (مصطفى صادق الرافعي، ١٩٧٤ م، الجزء ٣، ص ١٠٧) بعبارة أخرى أن دافع الرثاء لا ينبعث عن رغبة الشاعر اذ أن كل شاعر كسائر الناس لا يحب ان يرثي من استحكمت علاقة ودية بينهما و أمّا انتخابي هذا البحث فيرجع الى ان القصيدتين اللتين نظمتهما الشاعران الاسلاميان تعدان من اهم المراثي في الادب العربي اذ أن محمد بن ابي الخطاب القرشي صاحب «جمهرة اشعار العرب» عدّ القصيدتين من عيون المراثي في شعر العرب (ابوزيد القرشي، ١٩٩٨ م، ص ٢٤١ و ٢٤٩) كما أن المبرد في «كامله» بذل منه عناية خاصة للقصيدتين و أتى حولهما ببحث ينم عن اهمية ما قاله ابو ذؤيب و مالك بن الريب و العلة الثانية في اختيار هذا المقال هي أن الشاعرين يعيشان تقريباً في عصر واحد و كل واحد منهما من الشعراء الاسلاميين و ان قضي ابو ذؤيب فترة من حياته في العصر الجاهلي.

أبو ذؤيب

لا أتوخى أن أتحدث في هذه الفرصة الضيقة النطاق حول حياة ابي ذؤيب و ماجرت عليه من الحوادث التي عاشها الشاعر اذ أن هذا الحديث لا يأتي بما ينفع القارئ و لا يكشف له عما غمض و خفى عليه من حياة الشاعر غير اننا نشير اشارة عابرة الى أن ابا ذؤيب من الشعراء المخضرمين ادرك الجاهلية و الاسلام و دخل في جيش عثمان بن عفان لفتح افريقية في سنة ٢٦ هـ (٦٤٦ م) مع خمسة من اولاده الذين توفوا كلهم بالطاعون بمصر (عمر فروخ، ١٩٩٢ م، الجزء الاول، ص ٢٩١) و أول من تكلم

عن ابي ذؤيب هو محمد بن سلام الجمحي صاحب طبقات الشعراء حيث قال: و كان ابو ذؤيب شاعراً فحلاً لا غميمة فيه ولا وهن. قال ابو عمرو بن العلاء سُئل حسان: مَنْ أشعر الناس؟ قال: حياً أو رجلاً قال: حياً. قال: اشعر الناس حياً هذيل و أشعر هذيل غير مدافع أبو ذؤيب (محمد بن سلام، ١٩٩٣ م، ص ٢٩) و من الجدوى أن نذكر أن ابا ذؤيب لمّا وصل الى مصر لدغته حية فمات سنة ٢٨ أو ٢٧ هجرية.

اشتهر ابو ذؤيب في الادب العربي بما قاله في رثاء ابنائه الخمسة الذين فجع بموتهم جميعاً فان موت ابنائه فجّر ينابيع مشاعر الشاعر و أثارها بحيث قال قصيدة مطلعها و هو:

أَمِنَ الْمُنُونِ وَ رَبِّهَا تَتَوَجَّعُ وَالذَّهْرُ لَيْسَ بِمَعْتَبٍ مَنْ يَجَزَعُ

(ابوزيد القرشي، ١٩٩٨ م، ص ٢٤١)

استهل الشاعر الابيات الاولى من قصيدته بحوار جرى بينه و بين صاحبتة أميمة حسب عادة الشعراء الجاهليين فأميمة تستفهم عن سبب شحوب جسم أبي ذؤيب مع أن له مالاً وافراً يستطيع أن يعيش به في الرخاء و الرفاهية من العيش فاليك هذه الابيات:

قَالَتْ أُمَيْمَةُ مَا لِحَسَمِكَ شَاحِباً مِنْذُ أَبْتَدِلْتَ وَ مِثْلُ مَالِكَ يَنْفَعُ
أُمٌ مَا لِحَسَمِكَ لَا يُبَلِّغُكُمْ مَضْجَعاً إِلَّا أَقْضَى عَلَيْكَ ذَاكَ الْمَضْجَعُ

(جمهرة اشعار العرب، ص ٢٤١)

فأجاب أبو ذؤيب في المحور الثاني من قصيدته عن سؤال صاحبتة و قال: كيف لا يكون وجهه شاحباً و لا يكون قلقاً و مضطرباً ينام في فراغ البال و يعيش مرتاحاً هانئاً عندما أدركت المنية أبناءه الخمسة و اهلكتهم اهلاكاً مبالغتاً دون ان تبقى على واحد منهم كأنّ القدر جمع مالديه من القوة و ضرب بها الانسان الذي يتمثل و يتجسد حياته في وجود أولاده الخمسة. و بعد ان عبّر الشاعر عن عجزه و فتوره امام حوادث الدهر أتى في المحور الاخير من قصيدته ببعض الحكم و المواعظ التي

تؤكد لنا بأن نخضع لنوائب الدهر و نقتنع بما يعتري علينا من ريب المنون و حدثان الايام لان النفس تعيش على العادات و الخصال التي عودت عليها.
 أما الالوان البلاغية التي نراها في القصيدة فهي كثيرة: منها اسلوب الانشاء أو الاستفهام الانكاري أو التعجب في الابيات الثلاثة من القصيدة ثم المنهج الخبري بما أجابه لسؤال صاحبه حتى يكشف عن تحسره و تلهفه الشديد على ما ألمّ به من الكارثة:

أودَى بِنِي فَأَعْقَبُونِي حَسْرَةً بَعْدَ الرُّقَادِ وَ عَبْرَةً لَا تَقْلَعُ
 سَبَقُوا هَوِيَّ وَ أَعْتَقُوا لِهَوَاهُمْ فَتَحَرَّمُوا وَ لِكُلِّ جَنْبٍ مَصْرَعٌ

و من أهم ما يمتاز به هذه القصيدة هو بعض الصور الخيالية كالاستعارة الممكنية التي ابتكرها ابو ذؤيب في قوله:

وَ إِذَا الْمَنِيَةَ أَتَشَبَّهْتُ أَظْفَارَهَا أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ

(عبدالحسين ناشر، دون التاريخ، ص ١٦٤)

فقد صور ابو ذؤيب الموت حيواناً ضارياً جعل له أظفاراً يفترس ضحاياه دون ان يترحم على احد و في هذه الاستعارة دلالة قوية على شعور الشاعر المرهف.
 و الصورة البلاغية المؤثرة في شعره هي الكناية في البيت التالي:

فَالعَيْنُ بَعْدَهُمْ كَأَنَّ جَفُونَهَا سُمِلَتْ لِشَوْكٍ فِيهَا عُوْرٌ تَدْمَعُ

و كما تعلمون أنّ الكناية أبلغ من التصريح فهي مما يزيد الكلام روعة و جمالاً

و افرأ (عبدالحسين ناشر، دون التاريخ، ص ١٧٥)

النكته الهامة الجديدة بالاشارة هي أنّ القصيدة تمتاز ببعض الخصائص للشعر الجاهلي و الاسلامي معاً فانها تفيض بالاسلوب و الالفاظ المهجورة البعيدة عن الذهن التي تخص الشعر الجاهلي (سعيد تيم، دون التاريخ، الجزء الاول، ص ٩٢)

و ان كانت في هذا الجانب أبسط من الاساليب الشائعة في الشعر الجاهلي و ذلك طبيعي اذ أن الرثاء ينبعث عن العاطفة الصادقة العميقة في القلب غير متكلف

يقتضي سذاجة المنهج في كل رثاء شعري و مما يبدو بارزاً في هذا الشعر هو ان الشاعر كغيره من الشعراء الجاهليين ذكر في مستهل قصيدته حواراً بينه و بين صاحبه أميمة ذلك الحوار الذي دار في شعر كثير من الجاهليين اما المسحة الاسلامية التي نراها في هذه القصيدة فهي التحدث عن الصبر و الجلد حيث يقول:

و تَجَلْدِي لِسَلَامَتَيْنِ أُرِيهِمْ أَنِّي لِرَيْبِ الدَّهْرِ لَا أَتَضَعُّعُ
لَا بُدَّ مِنْ تَلْفٍ مُقِيمٍ فانتظر أِبَارِضِ قَوْمِكَ أُمُّ بِأُخْرَى المَصْجَعِ

(ابوزيد القرشي، ١٩٩٨ م، ص ٢٤٢)

فنكفي بهذا المقدار من الحديث عن رثاء ابي ذؤيب الهذلي فندلي ببيان موجز حول ما نظمه من الرثاء مالك بن الرب التميمي.

مالك بن الرب

لا يخفي عليكم أن ولادة مالك بن الرب صودفت بداية الحكم الاموي و نشأ في بادية بني تميم بالبصرة. حسب ما وصلنا من الروايات ان مالك بن الرب كان في بداية امره يقطع الطريق (خيرالدين زركلي، ١٩٨٦ م، المجلد الخامس، ص ٦٥) مع ثلاثة نفر و كان جميلاً شجاعاً فاتكاً لا ينام الا متوشحاً بسيفه. فلما ولي معاوية بن ابي سفيان، سعيد ابن عثمان بن عفان على خراسان سنة ٥٦هـ لقي سعيد مالكا في طريقه فاستصلحه و استتابه ثم اصطحبه معه و أجرى عليه في كل شهر خمسمائة دينار و قيل ان مدة اقامة مالك لم تتجاوز سنة الا ان المنية وافته (عمر فروخ، ١٩٩٢ م، الجزء الاول، ص ٣٩٢). فلما أشرف مالك بن الرب على الموت. قال القصيدة التالية في رثائه:

أَلَا كَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبَيْتَنَ كَيْلَةً بِجَنْبِ الْغَضَا أَرْجِي الْقِلَاصَ التَّوَّاجِحَا
ان هذا الرثاء يعتبر في نوعه أبداع المرثي في الشعر العربي اذا ان مالك بن الرب بدأ بقصيدته في موضوع بديع حول حنين الشاعر الى موطنه و اشتياقه الى عودة الايام الاولى التي قضاها في بلدته العربية التي يسودها البيئة العربية باشجارها و

نياقها المسرعة. فهو يعبر عن تلفه على مفارقة وطنه العربي و اهله المشفق عليه فان تحسره على بلده العربي و مناظره الخلافة الرائعة مما يغرق العيون في الدموع و يمزق القلوب بالصدوع فاليك هذه الابيات:

فَلَيْتَ الْعِضَا لَمْ يَفْطَعْ الرِّكْبُ عَرْضَهُ وَ لَيْتَ الْعِضَا مَاشَى الرِّكَابَ كَيْالِيَا
لَقَدْ كَانَ فِي أَهْلِ الْعِضَا لَوْ دَنَا الْعِضَا مَزَارٌ وَ لَكِنَّ الْعِضَا لَيْسَ دَانِيَا
أَلَمْ تَرَنِي بَعْتُ الصَّلَاةَ بِالْهَدَى وَ أَصْبَحْتُ فِي جَيْشِ عَقَانَ غَازِيَا

(ابوزيد القرشي، ١٩٩٨ م، ص ٢٦٩)

البيت الاخير يدل على أن الشاعر لم يتأثر بالثقافة الاسلامية و مبادئها السامية التي تفضل الجهاد في سبيل الله على مايلد النفس من العيش في الوطن بالمال و البنين بحيث ان مالك بن الربيع يعتبر انضمامه الى جيش سعيد بن عثمان لغرض الجهاد ضلالة و يتحمس لوطنه العربي تحمسا شديداً و بعد أن اشرف مالك على الموت و أحس أن المنية دانت اليه، أحدثت عليه اللوعة من كل جانب فوجده غريباً و حيداً بعيداً عن الاهل و الخلان و الوطن حيث يقول:

تَدَكَّرْتُ مَنْ يَبْكِي عَلَيَّ فَلَمْ أَجِدْ سِوَى السِّيفِ وَ الرِّمْحِ الرُّدَيْنِيِّ بَاكِيَا
وَ أَشَقَّرَ خَنْدِيدٍ يَجْرُ عِنَانَهُ إِلَى الْمَاءِ لَمْ يَتْرِكْ لَهُ الْمَوْتَ سَاقِيَا

بعد ان ذكر مالك بن الربيع هذه الابيات نرى أنه انغمس في متاهات الخيال و تذكر ان له بأرضه و وطنه نسوة يندبن و يبكين عليه:

وَ لَكِنَّ بِأَكْنَافِ السَّمِينَةِ نِسْوَةٌ عَزِيْزَةٌ عَلَيْنَّ الْعَشِيَّةِ مَا بِيَا

(ابوزيد القرشي، ١٩٩٨ م، ص ٢٧٠)

فان صور الاخيلة في رثاء مالك بن الربيع متنوعة فالشاعر من جهة يتخيل انه مغترب لايجد من يقوم بتدفينه و من جانب آخر عند مايرى أن موته قد حان و اقترب يطلب من صاحبيه الموكلين على دفنه أن يرفعا لحظة حتى يشاهد للمرة الاخيرة من رابية من روابي خراسان طلوع كوكب سهيل في وطنه العربي حيث

يقول:

وَلَمَّا تَرَاءَتْ عِنْدَ مَرُومَيْتِي وَخَلَّ بِهَا جِسْمِي وَحَانَتْ وَفَاتِيَا
أَقُولُ لِأَصْحَابِي إِرْفَعُونِي فَانَّهُ يَقَرُّ بِعَيْنِي أَنْ سُهَيْلٌ بَدَالِيَا
أَقِيمَا عَلَيَّ الْيَوْمَ أَوْ بَعْضَ لَيْلَةٍ وَلَا تُعْجَلَانِي قَدْ تَبَيَّنَ مَا بِيَا

(ابوزيد القرشي، ١٩٩٨ م، ص ٢٧٥)

يصف الشاعر في المحور الآخر من قصيدته نفسه عطافاً اذ أحجمت الخيل و تقاعدت عن الهجوم سريعاً الى ساحة الحرب بكل من يستنجده فهو صبور على مقارعة الابطال و حياته تنحصر في صورتين فهو اماً مرتاح متنعم و اما مقتحم في حرب عوان:

وَقَدْ كُنْتُ عَطْفًا إِذَا الْخَيْلُ أَدْبَرَتْ سَرِيعًا لَدَى الْهَيْجَا إِلَى مَنْ دَعَانِيَا
وَقَدْ كُنْتُ صَبْرًا عَلَى الْقِرْنِ فِي الْوَعْيِ وَعَنْ شَتْمِي ابْنَ الْعَمِّ وَالْجَارِ وَإِنِيَا
فَطَوْرًا تِرَانِي فِي ظِلَالٍ وَنَعْمَةٍ وَطَوْرًا تِرَانِي وَالْعِتَاقِ رِكَابِيَا
وَطَوْرًا تِرَانِي فِي رَحَى مُسْتَدِيرَةٍ تُخَرِّقُ أَطْرَافَ الرَّمَاحِ ثِيَابِيَا

(ابوزيد القرشي، ١٩٩٨ م، ص ٢٧١)

من المطاف العابر في القصيدة يبدو أن الشاعر ينظر الى الدنيا نظر الوامقين و يحب نفسه و ماله حباً جمماً بحيث يتلهف على موته و على ماله الذي لا يدري من يرثه بعده:

وَلَا تُنْسِيَا عَهْدِي خَلِيلِي بَعْدَمَا تَقَطَّعَ أَوْصَالِي وَتَبَلَّى عِظَامِيَا
وَأَصْبَحَ مَالِي مِنْ طَرِيفٍ وَتَالِدٍ لِعَيْرِي وَكَانَ الْمَالُ بِالْأَمْسِ مَالِيَا
فينهى الشاعر رثائه بأنه يتذكر أسرته و يطلب من زوجته أم مالك أن تقيم له حفلة التابين و تذكره مدى الدهر و تبكي عليه. ثم يصف قبره الذي يضم عظامه البالية و يرجو من اصحابه أن يبلغوا نعيه الى بنى قومه و يتقدموا بالسلوان الى قلوبه التي تمرق اكباداً و تبكى بواكيا:

فيا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ بَكَتْ أُمُّ مَالِكٍ كما كُنْتُ لو عَالُوا نَعِيكَ باكِيا
فيا رَاكِباً أَمَا عَرَضْتُ قَبْلُغَا بني مَالِكٍ و الرِّيبِ أَنْ لَا تَلَاقِيَا
و عَطَّلُ قَلُوصِي فِي الرِّكَابِ فَانهَا سَتُبْرُدُ أَكْبَاداً و تَبْكِي بِوَاكِيا

(ابوزيد القرشي، ١٩٩٨ م، ص ٢٧٢)

ان هذه القصيدة تمتاز بصدق العاطفة و بساطة الاسلوب مما نراه في الشعر الجاهلي كما أن الالفاظ الخشنة و المنهج البسيط في التعبير يدلان على أن الشاعر حافظ على قيم شائعة في الشعر الجاهلي: منها حنينه الشديد الى وطنه العربي المزيج بما يلهمه عاطفته الصادقة المتأثرة من احتضار الموت غير أن القصيدة فيها وحدة عضوية تامة لا نراها في كثير من الشعر الجاهلي و الاسلامي و يعدّ هذا الامر طبيعياً اذ أن كل مشرف على الموت لا يفكر الا في حياته و ما ينتهي اليه مصيره و ما يبقى بعده من الابناء و الاموال و لكن المقارنة السريعة بينها و بين ما قاله ابو ذؤيب تثبت أن الحكمة و الامثال الجارية على لسان ابي ذؤيب مما جعل لقصيدته منزلة أرفع من شعر مالك بن الريب اذ أن بعض الابيات لابي ذؤيب أصبح مضرب الامثال في الادب العربي كالبيتين التاليين:

و اذا المنية أنشبت أظفارها ألفت كلاً تميمية لا تنفع
و تجلدي للشامتين أريهم أني لريب الدهر لا أتضعض

(محمد بن ابي بكر الرازي، ١٩٨٢ م، ص ٧٧ - ابوزيد القرشي، ١٩٩٨ م، ص ٢٤١)

نتيجة البحث:

ان رثاء مالك بن الربب خرج عن صميم عاطفته الشخصية الصادقة تعبيراً عما أحسه من ألم الفراق و الغربة عند احتضار الموت دون أن يكون فيه يقظة و وعى لضمير الانسان الذي يغتر في كل عصر من العصور بالدنيا و زخارفها في حين أن قصيدة أبي ذؤيب حملت اثنائها كثيراً من الحكمة و الموعظة العامة لكل زمان من الازمنة صادقاً عن العواطف الجياشة في قلب من يصيبه كارثة أو ملامة و علاوة على هذا فان موضوع رثاء ابي ذؤيب من المواضيع المكررة طرق بابها كثير من الشعراء قبله و بعده في حين أن قصيدة مالك بن الربب من حيث الموضوع اكثر جدّة و ابداعاً من رثاء أبي ذؤيب الهذلي و نضيف الى هذه الخصائص خصيصة انفرد بها مالك بن الربب و هي الوحدة العضوية الموضوعية التي لا نراها ابداً في شعر أبي ذؤيب الهذلي.

المصادر و المراجع:

١. الجمحي، محمد بن سلام، طبقات الشعراء، ليدن، ١٩١٣م.
٢. الرازي، محمد بن ابي بكر؛ الامثال و الحكم، المصحح: الدكتور فيروز حريجي، سورية، ١٩٨٢م.
٣. الرافي، مصطفى صادق؛ تاريخ آداب العرب، الجزء الثالث، بيروت، دارالكتاب العربي، ١٩٧٤م.
٤. الزركلي، خيرالدين؛ الاعلام، المجلد الخامس، بيروت، دار العلم للملايين، أيار (مايو) ١٩٨٦م.
٥. القرشي، ابوزيد، ابوزيد؛ بيروت، دارصادر، ١٩٩٨م.
٦. حسام العلماء، عبدالحسين ناشر، درر الادب، الهجرة، دون التأريخ.
٧. ضيف، شوقي؛ تاريخ الادب العربي، الجزء الاول، دار العلم للملايين، ١٩٨٤م.
٨. فتحي البلعاوي، الادب و النصوص، الجزء الاول، سعيد تيم، حكومة قطر.
٩. فروخ، عمر؛ تاريخ الادب العربي، بيروت، دارالعلم للملايين، ١٩٩٢م.